

ميمية الفرزدق في مدح آل البيت (زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)

د. الفكي محمد الحسن الشيخ إدريس
أستاذ الأدب والنقد - جامعة أمدرمان الأهلية

المستخلص:

المديح غرض قديم من أغراض الشعر العربي، ولكن فيه اختلاف بسيط بين العصور المختلفة (الجاهلي، وصدر الإسلام، والعصر الأموي). كان المديح في العصر الجاهلي ينصب على زعماء القبائل وساداتها، وكان صادقاً في مضمونه، بينما كان في عصر صدر الإسلام يصدر عن حُب وإخلاص وإيمان بالإسلام، ويمكن المدح فيه خالصاً للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمهاجرين وجميع المسلمين، ولم يكن لغرض مادي، وإنما كان احتساباً عن حياض الإسلام. أما المديح في العصر الأموي كان غرضه التكسب والتَّيْل من عطاء الخلفاء والأمراء والقواد، وفيه تحول المدح بما يشبه الحرفة. تم تخرج إلى مديح آل البيت - في هذا العصر - ولناخذ الفرزدق مثلاً لمدح آل البيت في قصيدته (الميمية) التي تحدثنا عنها في نسبتها للشاعر الفرزدق، فقد أورد الأدباء والنقاد تشككاً غير قليل حتى وإن كان الفرزدق من فحول شعراء العصر الأموي الثلاثة (جرير، والفرزدق، والأخطل). وهناك بعض الذين دافعوا عنه من الأدباء والمحققين المشهورين مثل المحقق المشهور والمعروف في ذلك إحسان عباس مثلاً، وكثير من النقاد الذين أثبتوا له الحق في ذلك، بل قال بعضهم وأن من حفظ شهره حفظ ثلث اللغة ونصف أخبار العرب، ولا يبعد أن يُنظم قصيدة كهذه وهو منافح ويدافع عن عقيدة، ويصدر عن رأي يُلهب الخيال، وقد قال عنه شيخ الحرمين - أبو عبد الله القرطبي: « لو لم يكن لأبي فراس عند الله عملاً إلا هذا دخل به الجنة، لأنها كلمة حق عند سلطان جائر ». إن القصيدة الميمية لم ترد كاملة في كُتب الأدب الأوائل، كالأغاني، وفيات الأعيان، العمدة، وديون الحماس لأبي تمام ... وغيرها من كتب الأدب القديمة، إضافة إلى اختلاف نسبة القصيدة للفرزدق رغم هذه الشهرة، والأمر يحتاج إلى مزيد من البحث العميق والتدقيق لتحقيق نسبتها إلى الشاعر أو بطلانها.

الكلمات المفتاحية: مدح، بلاغة، تحليل

Abstract:

Praise is an ancient purpose of Arabic poetry, but there is little difference between the different eras (Jahili, Sadr al- Islam and the Umayyad period). In the pre-Islamic era, the tribes were focused on tribal Leaders and pillows, and were sincere in its content, while in the era of Islam issued by love, sincerity and

sincere faith Islam, and the praise is sincere to the Prophet (PBUH) and his companions and immigrants and all Muslims, and was not for a material purpose, but was Calculating and supplying the menstruation of Islam. The Praise in the Umayyad period was the purpose of gaining and undimming the tender of the caliphs, princes and pimp. In which the era – and take Earazdag example of the House in his poem (Mimi), which we talked about in the ratio of the poet Frazdag, And oaks). There are some who defended him from the famous writers and investigators such as the famous investigator and known in the Ihsan Abbas, for example, many of the critics who proved to him the right to do so, but some of them Saied that the preservation of his hair saved one- third of the language and half of the news of the Arabs, and not far from organizing such a poem as struggles and defends the doctrine, and issued an opinion that inflames the imagination. The Shaykh of Tow Holy Mosques – Abu ‘Abd al- Ahzad al- Qurtubi- said: (If Abu Firas did not work when uh. Only this entered paradise, because it is the right word when the Sultan unjust). The poem did not appear the first books of literature, such as songs, mortality of objects, the mayor, and the Office of enthusiasm for Abu Tammam and other books of ancient Literature, in addition to the difference in the proportion of the poem to a certain person, and the difference in which the poem was said those factors that led to doubts in the proportion. The poem of Frazdag despite this fame. Further deep research and scrutiny are needed to attribute to or its invalidity.

Keywords: praise; eloquence; analysis.

مقدمة:

تناولت هذه الورقة البحثية (الميسية) للشاعر الفرزدق في مدح آل البيت « زين العابدين علي بن الحسين علي بن أبي طالب» واحتوت على ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول فيها مقدمة عن مفهوم المدح لغةً واصطلاحاً. وعن المدح في العصر الجاهلي، وصدر الإسلام، والعصر الأموي. وتناول المبحث الثاني: القصيدة الميمية نصاً وشرحاً وتحليلاً، كما تناول الظواهر البلاغية في القصيدة. أما المبحث الثالث: تناول آراء النقاد في القصيدة، وتحقيق نسبة القصيدة لقائلها والاختلاف في ذلك. وضمنت القصيدة- بمستخلص للدراسة باللغة العربية والانجليزية، وفهرس للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: مفهوم المدح عموماً (لمحة عما كان عليه المدح في الجاهلية وصدر الإسلام، ثم في العصر الأموي).

المدح لغة: نغيض الهجاء، وهو حُسْنُ الثَّنَاءِ على الجميل الاختياري قصداً⁽¹⁾ واصطلاحاً: هو الثناء على ذي شأن بما يُستحسن من الأخلاق النفيسة كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة، وأن هذه الصفات عريقة فيه وفي قومه وبتعداد محاسنه الخلقية⁽²⁾

كان الشاعر في الجاهلية لسان الحال ولسان القبيلة، ويرى أن عليه واجباً في مجتمعه القبلي تجاه سادات قومه وفرسانهم، ثم أصبح المدح من الأغراض المستقلة في الشعر الجاهلي يشيد بفضائل الجاهلية بعيداً عن التكسب، هدفه إظهار الحب للممدوحين والإعجاب بهم، ويُعدُّ زهير بن أبي سلمى والناطقة الذبياني وبشر بن أبي حازم، وحسان بن ثابت من أشهر المادحين في الجاهلية⁽³⁾

ومن أمثلة ومناذج المدح لزهير بن أبي سلمى وهو يمدح هرم بن سنان والحرث بن عوف⁽⁴⁾

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رَجَالٌ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
يَمِيناً لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجُدُّهُمَا عَلَى كُلِّ خَالٍ مِنْ سَجِيلٍ وَمُزْمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبَساً وَذَبِيحَانِ بَعْدَمَا تَقَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عَطَرَ مَنْشَمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا أَنَّ نُدْرَكَ السُّلَمِ وَاسِعاً بِمَالٍ وَمَعْرِفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسَلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوَاطِنٍ بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَائِمِ
عَظِيمَيْنِ فِي عَلِيَا مَعْدٍ هُدَيْتُمَا وَمَنْ يَسْتَبِجْ كَنْزاً مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمِ
وَأَصْبَحَ يُخَذَى فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ مَعَانِمَ شَتَى مِنْ إِفَالٍ مُزْنَمِ

وعندما وصل إلى هذا المنظر الجميل الفتان، كأنما سبح به خياله إلى جمال الخلق وروعة السلوك، وحب الخير والتضحية في سبيل الأمن والاستقرار، فشرع يتحدث عن الساعين في الخير المحيين للسلام الداعين إلى الإخاء والصفاء، فأشاد بموقف شخصين عظيمين قاما بعمل جليل، فقال إنها تحملاً ديّات القتلى في حرب ضروس شعواء، بسببها قُطعت الأرحام، وتفرّق الجمع والأهل وتناحر الأخوان.

فبفضلهم هذا جمعا الشمل وأصلحا ما أفسد، إنهما نعم السيّدان، وقال لهما: لقد ضحيتما بكل ما تستطيعان في سبيل السلام، وأخرجتما من أموالكم خيرها وأجودها، دون أن يكون لكما في الحرب أيّ اتصال، ولكنه حبكما للخير ورغبتكما في السلام.

ثم يقول⁽⁵⁾:

أَلَا أُبْلِغُ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مَقْسَمِ
فَلَا تَكْتُمُنَّ لِلَّهِ مَا فِي صَدْرِكُمْ لِيُخْفِيَ وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخِّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلَ فَيُنْقَمِ

وهنا يوجه الكلام إلى الأحلاف المتحاربين قائلاً:

هل أقسمتم أن تفعلوا ما لا ينبغي؟ لا تظهروا الصلح، وفي نيتكم الغدر، لأن الله سيدخره لكم ويحاسبكم عليه عاجلاً أو آجلاً.

لا شك أن زهيراً في مدحه هذا بعيد كل البعد عن التكسب ونوال الرّفد، وأن مدحه للسيدةين صادق فيه مصداقاً لول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: « لا يمدح الرجل إلا بما فيه ». ومن المادحين في الجاهلية أيضاً الناطقة الذبياني:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني
فبت كأن العائدات فرشتني
حلفت، ولم أترك لنفسك رية
فلا تتركني بالوعيد، كأنني
ألم تر أن الله أعطاك سورة
إنك شمس والملوك كواكب
ولست بمستبق أخاً لا تلمه
فإن أك مظلوماً، فعبد ظلمته

وتلك التي أهتم منها وأنصب
هرانساً، به يعل فراشي ويُقشب
وليأس وراء الله للمرء مذهب
إلى الناس مطلي به القار، أجرب
يرى كل ملك دونها، يتدبذب
إذا طلعت لم تبدٍ منهم كوكب
على شعث أي الرجال المهذب
وإن تك ذا عتبي، فمثلك يعتب

من الواضح أن النابغة الذبياني صور في أول هذه الأبيات أنه مريض، وذلك عندما بلغه لوم النعمان له، وأنه أخذته الآلام وأهله يسوون له فراشه، رحمةً به وعطفاً عليه، ويحلف له أنه بريء مما أتهمه به الواشي إذ لا يزال يري أمانة عهده، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة، فأكرموه وحكموه في أموالهم، فوجب عليه أن يشكر لهم صنيعهم، كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من عطائه، وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغيرهم؛ فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم، يتوارون في ضيائه ومجده، وهذه صورة لا شك أنها تركت أثراً بليغاً في نفس النعمان، ثم تلاها باستعطافه، فصور له ما صب عليه من غضب كالقاب يُصب على الأجرب فيتحاماه الناس، ثم يعود ويصور منزلته، وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته؛ ويقول له: هب أن مديحي للغساسنة هفوة عتي؛ فإن لكل شخص هفوة، وأين الأخ الذي لا يهفو ولا يعثر؟!، ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياه ومن يخلصون له الولاء، فإن ظلمتني قبلت ظلمك، وإن عفوت عني ورضيت فليس غريباً عنك، فمثلك يصفح الصفح الجميل.

فقد وصلت براعة الشاعر في المديح والاعتذار الذي ابتكره حتى أحج الملك، أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم.

المديح في صدر الإسلام:

أخذ المديح في صدر الإسلام منحى دينياً، إذ سجل الشعراء للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الصفات التي وصفه بها القرآن الكريم، ومدحوا أصحابه الأجلاء بالمعاني الإسلامية، وقد جاء في شعرهم معاني الصدق نظراً لأنهم يصدرون فيه حباً وإيماناً لصاحب الرسالة ولصحابته وعامة المسلمين، فهنا لم يكن الغرض مادياً وإمّا كان احتساباً وطمعاً فيما عند الله من أجر كما قال حسان بن ثابت: لا يقصدون من ورائه التكسب ونيل العطايا، إمّا هي مشاركة في الدعوة إلى الدين والذود عنه باللسان والسيف معاً. ولكن يرى الدكتور شوقي ضيف أن السمات والخصائص الفنية للمديح في العصر الإسلامي لم تتغير كثيراً عنها في الجاهلية، وأن حسان وغيره من مدحون الرسول صلى الله عليه وسلم بالشجاعة والسعة في الكرم، والتصدي

للمعتدين، والوفاء بالعهود كأنما يمدحون ملكاً من ملوك الأرض، أو سيّداً من ساداتها لم تكن له سمة النبوة، وقد استشهد على رأيه هذا بلائمة كعب بن زهير التي نظمها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حينما جاء مُعْتَذِراً ومُسْلِماً⁽⁶⁾:

يقول الدكتور شوقي ضيف (لو ما جاء في القصيدة من قوله):
 أُنبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
 مَهَلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً الْقُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ
 لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ

لما عرفنا انها في مديح الرسول ﷺ، ولتبادر لنا انها في مديح سيد من سادات القبائل. اما ملاحظة شوقي ضيف على لامية كعب من السمات الجاهلية، فإن كعباً قالها حينما وفد على الرسول ﷺ مسلماً ومعتزلاً ولم تشرب نفسه روح الاسلام وقد هذب الاسلام فيما بعد من شعره. أما حسان بن ثابت كان ينظر في مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم، من الزاوية الدينية، لا من الزاوية القبلية، كما في الجاهلية، لذلك جاءت مدائحه صادقة، ونابعة من قلبه وعقله، وهذه أبيات يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِئَةِ خَائِئُ
 وَضُمَ إِلَهُ اسْمِ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
 وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ،
 نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَقَتْرَةٍ
 فَأَمْسَى سِرَاجاً مُسْتَبِيرًا وَهَادِيًا
 وَأَنْذَرَنَا نَارًا، وَبَشَّرَ بَجَنَّةٍ،
 وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي،
 مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ بِلُوحٍ وَيَشْهَدُ
 إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنَ أَشْهَدُ
 فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمدُ
 مَنْ الرسلِ، والأوثانَ في الأرضِ تُعْبَدُ
 يَلُوحُ كَمَا لَحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنْدِ
 وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ، فَاللَّهُ نَحْمَدُ
 بِذَلِكَ مَا عَمَرْتُ فِيهَا لِنَاسٍ أَشْهَدُ

لقد حشد حسان في قصيدته عدداً كبيراً من عبارات الثناء والمدح للنبي ﷺ، فهو واضح النبوة من خلال خاتمها، وهو مفضل من الله سبحانه وتعالى عندما قرن اسمه باسم النبي ﷺ في الدعوة إلى الصلاة، واسمه مشابهة لصفات الإله، وهو نبي خلص البشرية من عبادة الأوثان، وهداها بنوره الساطع وبشرها بالجنة، وحذرها من النار.

المديح في العصر الأموي:

عندما قامت الدولة الأموية قصد الشعراء خلفاءها لنيل عطاياهم، والحصول على نوالهم وجوائزهم، وتحول المديح إلى ما يشبه الحرفة عند بعض الشعراء، ولم يعد الشعر عندهم هواية يُشبع الشاعر بها حاجة نفسه، بل أصبح حرفة توفر لصاحبها المال الكثير، والحياة الهانئة، وأصبح الشاعر مقابل هذا الكسب مدعاة لأن يحسن الشاعر هذه الحرفة ويجيدها ويوجودها. وازدهر فن المديح في عصر بني أمية، ويحتل المنزل

ميسية الفرزدق في مدح آل البيت (زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)

الأولى بين أغراض الشعر العربي، فقد شجع خلفاء بني أمية شعراء المدح وفتحوا لهم أبواب قصر الخلافة وأكرموا وفادتهم، فجاؤوا من أرجاء الدولة محملين بقصائد المديح التي نظموها في مدح خلفاء بني أمية، والتغني بفضائلهم ومحامدهم.

ف نجد أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان التفت حوله الشعراء ومدحوه، وقد عُرف بالفصاحة والبلاغة، وحفظ القرآن الكريم، وقرأ العلوم الدينية على مشيخة الحجازيين في المدينة؛ كما أنه أديباً عالماً ينقد الشعر، ويميز جيده من رديئة، وله مع الشعراء والأدباء مجالس مشهورة، نجد أخبارها في كتب الأدب مثل: الكامل للمبرد، والأُمالي لأبي علي الغالي وغيرها من كتب الأدب⁽⁷⁾. وقد أُعجب الشعراء بعبد الملك بن مروان ومدحوه ووفدوا عليه، ومن الشعراء الذين اتصلوا به وكانت لهم منزلة كبرى أعشى ربعة، وعبد الله بن قيس الرقيات، وعمر بن أبي ربعة، والفضل وغيرهم. ومن الشعراء الفحول الذين اتصلوا به أيضاً وكانت لهم منزلة في بلاطه: الأخطل وجريز والفرزدق.

أما الأخطل فبالرغم من نصرانيته أنه كان شاعر عبد الملك المفضل فكان يدخل على عبد الملك بغير إذن ويجيء وعليه جبة خز وفي عنقه سلسلة ذهب، وتعد قصيدته (خف القطين) من أروع ما قال الأخطل من مديح في عبد الملك، وفيما يلي بعض أبيات المديح التي وردت في هذه القصيدة، يقول فيها:

خَفَّ القطينُ، فراحوا منك، أو بگروا	وأزعجتهم نوى في صرفها غيرُ
إلى أُمري لا تعدّينا نوافله	أظفـره الله، فاليهنأ له الظفرُ
الخائض العُمر، والميمون طائرُه	خليفة الله يُستسقى به المطرُ
والهمم بعد نجى النفس يبعثه	بالحزم، والأصمغان القلب والحدَرُ
والمستمر به أُمـر الجميع، فما	يغتره بعد توكيد له، غررُ
وما الفرات إذا جاشت حوالبه	في حافتيه وفي أوساطه العشرُ
وذَعَدَعَتُه رياح الصيف، واضطربت	فوق الجأجي من آذيه غدرُ
مسحنفر من جبال الروم يستره	منها أكافيف فيها، دونهُ، زورُ
يوماً، بأجود منه، حين تسأله	ولا بأجهر منه، حين يجتهرُ

فتدور هذه الأبيات حول عبد الملك بن مروان فيصفه الأخطل بالكرم والثبات ويمن الطلعة، وأنه الخليفة المبارك، ويصفه بالحزم والشجاعة والقوة، ويشبهه في الأبيات الأربعة بالفرات في كرمه وروعة نظره، إذ يقول إن الفرات ليس بأجود من عبد الملك ولا أروع منه منظرًا.

أما جريز فعنده أربع قصائد في مدح عبد الملك، ويستغرق المدح بصفة عامة معظم ديوانه، وأكثر مدائحه في الحجاج وبني أمية وقبيلة قيس المضرية، ولم يرفع جريز عن مدح أي شخص أفاد عليه نوافله، حتى أنه مدح الموالي، ويقول في مدح عبد الملك⁽⁸⁾:

تَعَلَّل، وهَي سَاغِبَةً، بنيتها بأنفاسٍ من الشَّم الفَرَّاح

سَأَمْتِاحُ الْبُخُورِ، فَجَنَّبَنِي أَذَاهُ الْوُومِ وَانْتَظَرِي امْتِيَا حِي
ثِقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالْجَنَاحِ
أَغْثَنِي يَا فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَبِّ مَنْكَ إِنَّكَ ذُو امْتِيَا حِ
فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا زِيَارَتِي الْخَلِيفَةَ وَامْتِدَا حِي
سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيثِي وَأُثْبِتُ لِلْقَوَادِمِ فِي جَنَاحِي
أَلَسْتُمْ خَيْرُ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَا حِ

والواضح في أبيات القصيدة إصرار جرير على الاستجداء، وتصوير ما يعانيه من الفاقة والمسغبة، فهمه الحصول على نوال الخليفة، وقد أجاد الشاعر في رسم هذه الصورة المؤثرة لزوجته وهي تُسَكَّتُ بنيتها الجائعين بجرات من الماء البارد، كما أجاد في تشبيه الخليفة بالبحور، كما أجاد في تشبيه نفسه بالطائر الذي فقد ريشه وينتظر من الخليفة أن يعيد إليه ريشه، ونجده أجاد وأبلغ الإجادة والتوفيق حين صور رفعة ومنزلة الأمويين وجودهم في البيت الأخير، وقد وقعت هذه الأبيات عند عبد الملك موقعاً حسناً وأعجبته إيمًا إعجاب وجعلته يعطيه مئة ناقة وثمانية من الرعاة، كما بوأته مكاناً علياً وجعلته بعد إنشادها شاعر بني أمية الأول (9).

الفرزدق، ثالث الشعراء الكبار الذين مدحوا عبد الملك بن مروان يقول:

إِذَا أَتَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْ بِالنَّصْحِ وَالْعِلْمِ قَوْلًا غَيْرَ مَكْذُوبٍ
مُجَاهِدٍ لِعُدَاةِ اللَّهِ مُحْتَسِبٍ جِهَادُهُمْ بِضُرَابٍ غَيْرِ تَذْيِيبٍ
إِذَا الْحُرُوبُ بَدَتْ أَنْيَابُهَا خَرَجَتْ سَاقَا شِهَابٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَصُوبٍ
فَالْأَرْضُ لِلَّهِ وَلِأَهْلِ خَلِيفَتِهِ وَصَاحِبُ اللَّهِ فِيهَا غَيْرُ مَغْلُوبٍ

من الأبيات لم يصل الفرزدق إلى مستوى رائع في مدح عبد الملك، كما وصل إليه الأخطل، أو حتى إلى المستوى الذي وصل إليه جرير من حيث إجادة المديح فقد أجاد الفرزدق في فن الفخر أكثر من غيره من فنون الشعر الأخرى (10). ونلاحظ من خلال مدائح هؤلاء الفحول الثلاثة أن غرض المديح في هذا العصر للتكسب وطلب النوال والعطايا من الخليفة بخلاف ما كان عليه في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام.

المبحث الثاني: القصيدة الميمية شرحاً وتحليلاً تهديد في اتصاله بالبيت:

يقال إن الفرزدق كان موالياً آل البيت، مناصراً لعلي وأبنائه عليهم السلام مجاهراً بحبه لهم، ولعل القائلون بذلك بنوا رأيهم على قصيدته في آل البيت عامة، وفي زين العابدين علي بن الحسين. وأتهم بالتشيع، قال عنه الشريف المرتضى: « كان شيعياً مائلاً إلى بني هاشم » ويقول فيه أحمد الهاشمي: « وكان فيه تشيع يستر أيام اختلافه إلى بني أمية ثم كشف به آخر حياته حتى أمام الخليفة هشام عندما رأى الناس تفسح طريق الطواف بالكعبة مهابةً وإجلالاً لعلي بن الحسين، فسأله عنه كالمجاهل لأمره، فشق ذلك على الفرزدق وأنشده قصيدته الميمية » (11)

نرى أن هذه الآراء كلها مبنية على قصيدته الميمية المشهور.

نص القصيدة⁽¹²⁾

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطَحَاءَ وَطَائِهٍ
هَذَا ابْنُ خَيْرٍ عَبَادِ اللَّهِ كُلُّهُمْ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بَضَائِرُهُ
كَلَّتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ
حَمَّالٌ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ، إِذَا فِدَحُوا
مَا قَالُوا: لَا، قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهُدِهِ
عَمَّ الْبَرِّيَّةَ بِالْإِحْسَانِ وَانْقَشَعَتْ
هَذَا الَّذِي أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ وَالِدُهُ
إِذَا رَأَتْهُ فُرِيضٌ قَالُوا قَائِلُهُا:
يَغْضِي حَيَاءٌ وَيَغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
بِكِفِّهِ خَيْرَانُ رِيحُهَا غَبَقُ
يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ
اللَّهُ شَرَفُهُ قَدَمَاءٌ وَعَظَمَهُ
أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ
مَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ يَشْكُرُ أَوْلِيَّةَ دَا
يُنْمِي إِلَى دَرَوَةِ الدِّينِ الَّتِي قَضَرَتْ
مِنْ جَدِّهِ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ
مُسْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبَعَتُهُ
يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدَّجَى عَنْ نَوْرِ غُرَّتِهِ
مِنْ مَعْشَرِ حُبِّهِمْ دِينٌ وَبُغْضُهِمْ

وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْجِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
بِحِدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ حُتِمُوا
الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتُ وَالْعَجَمُ
يُسْتَوَكِّفَانِ وَلَا يَعْرِوهُمَا عَدَمُ
يَزِينُهُ اثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمُ
حُلُو الشَّمَائِلِ، تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ
لَوْلَا التَّشْهُدُ كَانَتْ لَأَوْهُ نَعَمُ
عَنْهَا الْغِيَاهِبُ وَالْإِمْلَاقُ وَالْعَدَمُ
صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهِي مَا جَرَى الْقَلَمُ
إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِرُ
مِنْ كَفِ أَرْوَغٍ فِي عَرْيْنِهِ شَمَمُ
رُكْنِ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
لَا وَلِيَّةَ هَذَا أَوْ لَهُ نَعَمُ
فَالِدَيْنِ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأُمَمُ
عَنْهَا الْأَكْفُ وَعَنْ إِدْرَاكِهَا الْقَدَمُ
وَقَضَلُ أُمَةٍ دَانَتْ لَهُ الْأُمَمُ
طَابَتْ مَغَارِسُهُ وَالْخَيْمُ وَالشَّيْمُ
كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلَمُ
كُفِّرَ وَقُرْبُهُمْ مُنْجِي وَمُعْتَصِمُ

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ فِي كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتَوٍ بِهِ الْكَلِمُ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كَأَنَّهُمْ أَوْ قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ: هُمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ كُنَّةَ جُودِهِمْ وَلَا يُدَايِبُهُمْ قُومٌ إِذَا كَرَّمُوا
هُمْ الْغِيُوثُ إِذَا مَا أَرْمَتْ أَرْمَتْ وَالْأَسَدُ أَسَدُ الشَّرِّ وَالْبَاسُ مُحْتَدِمُ
لَا يَقْبِضُ الْعُسْرَ بَسَطًا مِنْ أَكْفِهِمْ سَيَّانَ ذَلِكَ إِنْ آتَرُوا وَإِنْ عَدِمُوا
يُسْتَدْفَعُ السُّوءُ وَالْبَلَاءُ بِحِيهِمْ وَيُسْتَرْزَبُ بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ

شرح القصيدة:

لقد أخلص الشاعر في هذه القصيدة، وكان مدحه فيها عن إخلاصٍ وحبٍ صادق، وعقيدة راسخة،
فالعاطفة فيها صادقة، وهو يعبر عن هذه العاطفة بتكرار حرف الإشارة (هَذَا) حيث يقول:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَاتِهِ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْجِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا إِنْ خَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ كُلُّهُمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتُ وَالْعَجَمُ

بدأ الشاعر قصيدته بالإشارة إلى ممدوحه ليجيب السائل (مَنْ هَذَا؟) قال: إن بطحاء مكة تعرف
وطأة أقدامه، كما تعرفه الكعبة وما جاورها، وأنه أتقى وأطهر الناس لأنه يُنسب إلى علي بن أبي طالب،
خير المؤمنين، وأمه فاطمة بنت رسول الله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ثم يُنكر الشاعر هشام
بأن تجاهله وتنكره للممدوح لا يعيبه، ولا يعزّه، أو ينقص من قدره، لأن الناس جميعهم تعرفه عربهم
وعجمهم، وقوله:

كَلَّتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا يُسْتَوَكَّفَانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا عَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخَشَى بَوَادِرُهُ يَزِينُهُ اثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمُ
حَمَّالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ، إِذَا فِدَحُوا حُلُو الشَّمَائِلِ، تَخْلُو عَنْدَهُ نَعَمُ
مَا قَال: لَا، قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهُدِهِ لَوْلَا التَّشْهُدُ كَانَتْ لَأُوهُ نَعَمُ

يصف الشاعر في هذه الأبيات بالكرم الواسع، وحسن الخلق والمظهر، وأن كرمه يفيض ولا ينضب،
مثله كمثل الغيث يعم الجميع بنفعه، وأنه لئِنْ الطباع يزينه حسن خلقه ويحمل عن الناس أثقالهم جميعاً
عيشاً وكرماً، وهو حلو الخصال والطباع، ويحلو له أن يجيب بكلمة (نَعَمْ) لمن يسأله. ثم يقول: أنه لا ينطق
بكلمة (لا) إلا حين يتشهد قائلًا: (لا إله إلا الله) ولو لا تشهده كانت عبارة (لا) تنقلب إلى نعم.

عَمَّ الْبَرِيَّةُ بِالْإِحْسَانِ وَأَنْقَشَعَتْ عَنْهَا الْغِيَاهُ وَالْإِمْلَاقُ وَالْعَدَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالْ قَائِلُهَا: إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

ميسية الفزدق في ملح آل البيت (زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)

لقد شمل إحسانه كل الناس، فمنع عنهم الفقر والإملاق، فكان الضوء الساطع الذي يزيل ظلام الفقر والعدم، وأن قريشاً تعرفه بأنه ذروة الكرم، ونهاية الفضل، وغاية البر، ثم أنه يغض طرفه من حيائه، ولكن الناس لا يستطيعون أن يكلموه لعظم هيئته وجلاله، ولا يرفعون أبصارهم إليه إلا إذا تبسم لهم، ثم يقول:

يَكْفِيهِ حَيْرَانُ رِيحِهَا عَبَقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَغٍ فِي عَرْيْنِهِ شَمَمٌ
يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ رُكْنُ الْحَظِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

يحمل الممدوح عصاه خيزران يفوح منها الطيب، وهو شامخ الأنف عزيز الأصل، وأن حجر الكعبة نفسه يعرف كف الممدوح، فيكاد يمسه شغفاً به ومن كرم يده وفواح طيبها.

اللَّهُ شَرَفُهُ قَدَمًا وَعَظْمُهُ جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
مَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ يَشْكُرُ أَوْلِيَّةَ دَا فَالِدَيْنِ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالُهُ الْأُمَمُ
يُنْمِي إِلَى ذُرَّةِ الدِّينِ الَّتِي قَضَرَتْ عَنْهَا الْأَكْفُ وَعَنْ إِدْرَاكِهَا الْقَدَمُ

يقول إن شاء أن يكون شريفاً وقد كُتب له في اللوح المحفوظ، وذلك أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم جده ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس، وأن نعمتهم شملت الناس جميعاً، ثم يقول: إن من يشكر الله يشكر أهله، لأنهم هم الذين جاؤوا بالدين، وأنه ينتمي إلى أهل الدين الذين لا تطالهم أيدي وأرجل الساعين، أو إلى قمة الدين، ألا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه هي القمة التي أعجزت الناس عن اللحاق بهم، أو إدراك قمته.

مِنْ جَدِّهِ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ وَقَفَّضَ أُمَّةً دَانَتْ لَهُ الْأُمَمُ
يقول الشاعر: أن لجده فضلاً على الأنبياء، كما لأمته فضلاً على الأمم، ومن أجمل ما قيل في هذا المعنى قول البوصيري في البردة:

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خُلُقِي وَفِي خَلْقِي وَلَمْ يَدَانُوهُ فِي عِلْمِي وَلَا كَرَمِي

وخير دليل على في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ أَدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» (13) وأما ما جاء في فضل أمته على الأمم قوله تعالى: أَأَنْتُمْ نَبِيٌّ هَجَّاهُمْ هِيَ هِيَ يَحْيَى (14)

مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ طَابَتْ مَغَارِسُهُ وَالْخِيَمُ وَالشَّيَمُ
يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدَّجَى عَنْ نَوْرِ عُرَّتِهِ كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلُمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَقُرْبُهُمْ مُنْجِي وَمُعْصِمُ

يقول الشاعر: أن أصله يعود إلى النبي ﷺ، وقد طابت مغارسه، وطابت أخلاقه ومزايه، وأنه حين يطل بوجهه المشرق، فإن الظلام يتبدد ويزول، كأما الشمس قد أشرقت، وأنه من قريش، وهم قوم جهم واجب على كل مسلم، كما يجب التقرب منهم لأن قربهم منجاة من الهلاك، واعتصام بحبل الله المتين.

مُقَدِّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ فِي كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ

إِنْ عُدَّ أَهْلُ الثَّقَى كَانُوا أَمْتَهُمْ أَوْ قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ: هُمْ
لَا يَسْتَتِيعُ جَاوِدٌ كُنَّةَ جُودِهِمْ وَلَا يُدَايِبُهُمْ قَوْمٌ إِذَا كَرَّمُوا
يقول: أن المؤمن يذكرهم في بداية صلاته وفي نهايتها، وأنهم أتقى الناس وأشرفهم، فيقول إذا عُدَّ
الثقة تجدهم قومه، يعني آل البيت، أتقى الناس، وإذا سألت عن خير أهل الأرض قيل لك هم آل البيت،
هم أجود الناس وأكرمهم.

هُمْ الْغِيُوثُ إِذَا مَا أَزَمَتْ أَزَمَتْ وَالْأَسَدُ أَسَدُ الشَّرِّ وَالْبَاسُ مُحْتَدِمٌ
لَا يَقْبِضُ الْعُسْرَ بَسَطًا مِنْ أَكْفِهِمْ سَيَّانَ ذَلِكَ إِنْ آثَرُوا وَإِنْ عَادِمُوا
يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ وَالْبَلَاءُ بِحُبِّهِمْ وَيُسْتَرْبَى بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ
يقول: أنهم غيث ينهم في زمن الشدة، وأسود حين يحتدم القتال، وأنهم يمدون أكفهم للناس في أيام
العسر واليسر، وأن حُبهم يدفع الشر والبلاء، ويزيد النعمة والإحسان.

الظواهر البلاغية في القصيدة:

نجد في هذه القصيدة الظواهر البلاغية المتمثلة في:
الظواهر المعنوية، والصُّور البيانية والمحسنات البديعية.

الظواهر المعنوية:

نعني بها أصول وقواعد يُعرَف بها أحوال الكلام العربي التي يكون فيها مطابقاً لمقتضى الحال، بحيث
يكون وفق الغرض الذي سيق له ⁽¹⁵⁾. ومن الظواهر المعنوية في قول الشاعر استعمال اسم الإشارة (هَذَا هَذَا
هَذَا....). واسم الإشارة بطبيعة دلالاته تحدد المراد منها تحديداً ظاهراً، ويميزه تمييزاً كاشفاً، وهذا التحديد
قد يكون مقصداً مهماً للمتكلم، وأنه حين يكون معيناً على المسند إليه بخر ما، فإن تمييز المسند إليه تمييزاً
واضحاً يمنح الخبر مزيداً من القوة، وقد أحسن الفرزدق استعمال اسم الإشارة في هذا الغرض، أعنى في تمييز
المُشار إليه وتحديده، ليصفه بما شاء من الصفاة وكما

هَذَا ابْنُ خَيْرٍ عَبْدِ اللَّهِ كُلُّهُمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ بِجِدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا

الإطناب:

وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أو ساط البُلغاء
لفائدة تقويه وتؤكدته ⁽¹⁶⁾. ومن ذلك في قوله الشاعرة في قصيدته:

سهلُ الخَلِيقَةِ لَا تُخَشَى بَوَادِرَهُ يَزِينُهُ اثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمُ
ونوع الإطناب هنا التوشيح في قوله: «اثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمُ» حيث أتى في آخر الكلام بمثنى
مفسراً باسمين ثانيهما معطوف على الأول.

ومن الظواهر المعنوية التي استخدمها الشاعر، الوصل والفصل.

يُنْشَقُّ ثَوْبُ الدَجَى عَنْ نَوْرِ غُرَّتِهِ كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظَّلْمُ

شبه إنارة وإضاءة الممدوح بالشمس في الإشراق والضياء، وعلى هذا يكون نوع التشبيه تبعاً لوجه الشبه، تشبيه مُفصل، حيث أن الشاعر ذكر المشبه والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه. أما من الحسية والعقلية: فالتشبيه حسي، إذ أن المشبه والمشبه به يدركان بأحد الحواس الخمس الظاهرة.

وقوله:

هُمُ الْغُيُوثُ إِذَا مَا أَزْمَةُ أَزْمَتْ وَالْأَسْدُ أَسَدُ السَّرَى وَالْبَاسُ مُحْتَدِمٌ

وهنا شبه ممدوحه بالمطر، والتشبيه هنا من حيث القوة المبالغة ووضوح الدلالة، تشبيه بليغ وهو في أعلى درجات التشبيه في قوة المبالغة، ووضوح الدلالة؛ وذلك لترك وجه الشبه وحذف أداة التشبيه. والغرض في التشبيه عند الشاعر في البيتين: هو بيان حال المشبه وذلك حين يكون المشبه غير معروف الصفة، فيفيد التشبيه الوصف.

الاستعارة:

والاستعارة لغة:

من قولهم: استعار المال إذا طلبه عارية.

واصطلاحاً:

هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة «الامتشابهة» بين المعنى المنقول عنه، والمعنى المستعمل فيه، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، والاستعارة ليست إلا تشبيهاً مختصراً، لكنها أبلغ منه ⁽²⁰⁾ وتعتبر الاستعارة من أسس الشعر، يقصدها الشعراء لتقوية المعنى، وتجلية المبنى في قصائدهم لذا فلا غرابة أن طرفها الفرزدق، وأكثر منها في شعره، لأنه من فحول الشعراء. ومن الاستعارة قوله:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَاتِهِ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْجِلُّ وَالْحَرَمُ

ويمكن إجراء الاستعارة بأنه مكنيه، وذلك بالقول إنه شبه البطحاء بإنسان يدرك ويعرف، ثم حذف الإنسان، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإدراك والمعرفة على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة إثبات المعرفة بالشئ للبطحاء. ويقول الشاعر في الاستعارة التصريحية:

مُسْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبَعَتْهُ ⁽²¹⁾ طَابَتْ مَغَارِسُهُ وَالْخَيْمُ وَالشَّيْمُ

وقد استعار الشار هذه الشجرة لأصل الممدوح، وذلك لعلاقة المشابهة بينهما في الحسن والجودة، وشبه أصل الممدوح بذلك بدعاء، أن أصله هو هذه الشجرة؛ لعلاقة أصله وقوتهم؛ على سبيل الاستعارة التصريحية.

الحسنات البديعية:

والبديع لغة:

هو المخترع الموجود لغير منال سابق، وهو مأخوذ ومشتق من قولهم: بدع الشيء وأبدعه اخترعه لا على مثال، ومنه قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَاراً) ⁽²²⁾.

واصطلاحاً:

هو علم يعرف به الوجوه، والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة، وتكسوه بهاءً، ورونقاً، بعد مطابقتها لمقتضى الحال مع وضوح دلالاته على المراد لفظاً ومعنى (23)، وفي هذا الباب محسنات معنوية، ومحسنات لفظية.

المحسنات البديعية:

ومنها التطابق، أو المطابقة، وهو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، وقد استخدم الشاعر هذا الأسلوب في قصيدته مثل قوله: (الجل والحرم) في البيت:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءَ وَطَأْتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْجِلُّ وَالْحَرَمُ

حيث تجد بين (الجل والحرم) طباقاً، ونوع الطباق طباق إيجاب، إذ أن الكلمتين لم تختلفا إيجاباً وسلباً، ومن ذلك قوله:

وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتُ وَالْعَجَمُ

طابق بين «العرب» و«العجم» وهما معنيان لم يختلفا إيجاباً وسلباً، ومن استخدامه لهذا الأسلوب أيضاً قوله:

يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدَّجَى عَنْ نَوْرِ غُرَّتِهِ كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلْمُ

فيها طابق الشاعر بين «الدجى» و«الغرة» فهما لفظان متضادان، لفظاً ومعنى، ولذلك يكون الطباق إيجاباً، وصورته حقيقية، وقال:

مُقَدِّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرَهُمْ فِي كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتَوِمْ بِهِ الْكَلِمُ

استخدم الشاعر الطباق في هذه البيت في قوله: «بدء ومختوم» ونوع الطباق طباق إيجاب وصورته حقيقية.

المحسنات البديعية: ومنها المقابلة، وجاءت في قول الشاعر:

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَقُرْبُهُمْ مُنْجِيٌّ وَمُعْتَصِمٌ

وهنا استخدم الشاعر أسلوب المقابلة، حيث نلاحظ في ذلك الطباق بين «حُبُّهُمْ وَبُغْضُهُمْ»، وآخر بين «دين وكفر» ففي كل من الجملتين طباق، فالحب في الجملة الأولى يُضاد البغض في الثانية، والدين في الأولى يُضاد الكفر في الثانية.

ومن المحسنات أيضاً الجناس، وهو من المحسنات اللفظية.

والجناس في اللغة:

هو المشاكلة، واتحاد في الجنس، ويُقال: جانسه إذا شاكله، وإذا اشترك معه في جنسه، وجنس الشيء أصله الذي أُشْتُقَ منه وتفرَّع عنه، واتحد معه في صفاته العظمى التي تقوم ذاته.

والجناس في الاصطلاح: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفان في المعنى (24)، ومنها قوله:

هَذَا ابْنُ خَيْرٍ عَبْدَ اللَّهِ كُلُّهُمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

وهنا نجي بين: « التَّقْيُ والتَّقْيُ » جناساً غير تام لاختلاف اللفظين في حرف واحد، وعلى هذا يكون نوع الجناس، الجناس المضارع. كما نجد الشاعر استخدم أيضاً جناس الاشتقاق، وهو من مشتقات الجناس وملحقاته، حيث قال:

إذا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَتْ قَائِلُهَا: إلى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

جناس بين « قال » و « قائل » وهما من مادة واحدة.

وفي قوله:

هُمُ الْغُيُوثُ إذا ما أْزَمْتُ الْأَسْدُ أَسْدُ الشَّرِّ وَالْبَاسُ مُحَدِّمُ

قوله: « أْزَمْتُ » و « أْزَمْتُ » من مادة واحدة، وقوله:

لا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ كُنَّةَ جُودِهِمْ ولا يُدَايِبُهُمْ قَوْمٌ إذا كَرَّمُوا

حيث أنه جناس بين « جواد » و « جود » لفظان مشتقان من مادة واحدة. ومن أنواع الجناس: الجناس المحرّف، وهو ما اختلف لفظاه في الحركة، مثل قوله:

يَغْضِي حَيَاءٌ وَيَغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِرُ
فقد جانس الشاعر بين « يَغْضِي » و « يُغْضِي » ونلاحظ أن الجناس في هذا النوع قد وقع في حركات الألفاظ دون الحروف.

المبحث الثالث: آراء النقاد في القصيدة:

هذه القصيدة قلما يخلو منها ومن خبرها كتاب أدب أو تاريخ، قديماً كان أم حديثاً، وذلك لأنها قمة في المدح وتتعلق بفضل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وله مكانه بين المسلمين، وقد شهد له بالفضل مُحِبُّوه وخصومه، وقد حفظها التاريخ لطرافتها ودلالاتها على جرأة عزيمة وقوة جنان، وإقدام من الفرزدق، فجابها بها هشاماً بما جابه من القول العظيم، مجاهراً بالحق أمام شخص يُخاف ويُرجى - وهو شاعر يأمل الجوائز من بني أمية - فأثر حب آل البيت على دنياه صادعاً بالحق صادقاً في القول.

تحقيق نسبة القصيدة والاختلاف في نسبتها:

مما لا شك فيه أن حول القصيدة اختلاف شديد فيمن قالها، وفيمن قيلت فيه، فالقصيدة وردت في مصادر الأدب المعتمدة بنسب مختلفة، حتى صار من الصعب الإحاطة بها، ومن هذه الأسباب أنها لا تُروى كاملة، بل ترد بعض الأبيات منها، وفي كثير من المواضع لشعراء كثر، ومن أشهر ما نُسبت إليه الشاعر « كُثَيْرٌ » فقد اورد الأمدي أن القصيدة لكُثَيْرٍ، قال: « أنشد له دعبل بن علي في كتابه في محمد بن علي بن الحسين بن علي رضوان الله عليهم »⁽²⁵⁾

الشاعر الحزين الكنائي:

وقد نسبها إليه أبو تمام في ديوانه الحماسة⁽²⁶⁾ وأورد ذلك الاختلاف ابن رشيف في كتابه العمدة صفحة 156، والأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، فكان مما قاله عن بعض هذه الأبيات:

بِكْفِهِ حَيْرَانُ رِيحُهَا عَبَقُ مِنْ كَفِ أَرْوَغٍ فِي عَرْيْنِهِ شَمَمُ
يَغْضِي حَيَاءٌ وَيَغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِرُ
فأجازه، فقال أخدمني أصلحك الله، فإنه لا خادم لي.

فقال: أختَر أحد هذين الغلامين، فأخذ أحدهما، فقال له عبد الله أعلينا تردل خذ الأكبر، والناس يروون هذين البيتين للفرزدق في أبياته التي يمدح بها علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو غلط ممن رواه فيها، وليس هذا البيتان مما يمدح به مثل علي بن الحسين عليهما السلام، وله من الفضل المتعالم ما ليس لأحد⁽²⁷⁾ وهذا اختلاف شديد في نسبة الأبيات يدل على شدة الاضطراب وضعف عزوها للفرزدق دون غيره منهم، خاصة وأن بعض من تُسبت إليه هو سابق للفرزدق. وبسبب هذا التردد يقول عبد السلام هارون - تحقيقه لكتاب الحيوان: « وقد سكت الجاحظ عن النسبة هنا، وكذلك في البيان، وكذا ابن قتيبة كما في عيون الأخبار، ولا يخفى على أرباب الأدب ورواته أهمية الجاحظ وابن قتيبة وعلو كعبها في الأدب والبلاغة، ولسكوتهما عن عزو القصيدة لقائل بعينه ما يدل على هذا الشك والاضطراب»⁽²⁸⁾

الاختلاف في مَنْ قيلت فيه:

ومما يدل على اضطراب هذه القصيدة، وقصة الخلاف الحاصل في الشخص الذي قيلت فيه، نجد أن في الحماسة والعمدة والأغاني أنها للحزين الكناني، في عبدالله بن عبد الملك بن مروان، وفي الأمانى وغيره أنها قيلت في قدم بن العباس، أو لكثير السهمي في محمد بن علي بن الحسين كما في المؤتلف، وإذا أتينا إلى من نسبها للفرزدق نجد خلافاً آخرًا حول من قيلت فيه، فالمشهور أنها قيلت في زين العابدين علي بن الحسين بن علي المتوفي سنة 95هـ وفي الطبراني 101/3 أنها للفرزدق، وكذلك في الحلية لأبي نعمي 139/3 أنها قيلت في الحسين بن علي عليه السلام. وقد تعقب ابن كثير في البداية والنهاية الطبراني في ذلك، وكان مما قاله: « هكذا أورد الطبراني في ترجمة الحسين - في معجمه الكبير - وهو غريب فإن المشهور أنها من قول الفرزدق في علي بن الحسين لا في أبيه، وهو أشبه، فإن الفرزدق لم ير الحسين إلا وهو مقبل إلى الحج، والحسين ذاهب إلى العراق، فسأل الحسين الفرزدق عن الناس فذكر له ما تقدم، ثم أن الحسين قتل بعد مفارقتة له بأيام يسيرة، فمتى رآه يطوف بالبيت والله أعلم⁽²⁹⁾. وذكر الفاكهي في أخبار مكة بسنده، أنها للفرزدق يمدح علي بن عبيد الله بن جعفر، قال: « حدثني أبو سعيد عبد الله بن شبيب قال: حدثني ابن عائشة قال: أخبرني أبي قال: دخل الفرزدق مكة فإذا بعلي بن عبد الله بن جعفر يطوف بالكعبة في حلتة وهو محرم فقال: ويحكم يا معشر أهل مكة، من هذا الذي يطوف بالبيت، والله ما رأيت أحسن من وجهه، ولا من حلتة، فقالوا: هذا علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ولفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشأ يقول هذه الأبيات التي ينشدها الناس» وذكر القصيدة.

ثم قال: « ويُقال إن الرجل الذ قال فيه الفرزدق هذا محمد بن علي»⁽³⁰⁾. وفي البداية والنهاية 108/9 أنها في علي بن الحسين، وأنه قد ذكر الصولي والحريري طرفاً ومدار كل الروايات الموجودة على رجل يدعى محمد بن زكريا الغلابي، وهو ساقط عند أهل الرواية وممن يضع الحديث، وذكر الدار قطني، ويحيى: أنه يضع الحديث، والذهبي يقول بعد سرد حديث رواه الغلابي: (فهذا من كذب الغلابي)، وقال ابن الجوزي أنه يضع الحديث⁽³¹⁾ ويقول ابن عبد البر: (وقول من قال: أن هذا الشعر قيل في علي بن عبيد الله بن جعفر، أو محمد بن علي بن الحسين أصحُّ عندي من قول من قال: أنه في علي بن الحسين: لأن علي بن الحسين توفي سنة ثلاثة أو أربعة وتسعين، وهشام بن عبد الملك إنما ولي الخلافة سنة خمس ومائة، وعاش خليفة عشرين سنة، وجائز أن يكون الشعر للحزين عبدالله الله في محمد بن علي بن الحسين، وممكن أن يكون للفرزدق في محمد

بن علي بن الحسين بن أبي جعفر- وكان له في أبيه علي بن الحسين- فلم يكن هشام يومئذ خليفة كما قال أبو علي في روايته، وأما قول الزبير: أنه قيل في قثعم بن عباس فليس بشيء، وإنما ذاك شعر قيل في قثم علي قافية هذا الشعر وعروضه ليس هو هذا»⁽³²⁾ وعلى هذا يقول أبو سفيان مدان، وهم يبتلون نسبة القصيدة للفردق: وقد كنت أمر بهذه القصيدة وأحفظها منذ الصبا، ولكن في نفسي منها شيء، بسبب لغتها السلسلة السهلة المطبوعة، وهي لغة لا تناسب شعر الفردق الذي عُرف بجزالته ووعورته أحياناً، ثم يسر الله لي أن أبحث عن هذا الشك هل له من أصل حتى تبين لي بما لا يدع مجالاً للشك، أن القصة والقصيدة كلها من الكذب والانتحال الذي كان يصنعه الرواة؛ لأغراض سياسية وطائفية واجتماعية أو رغبة في التكسب والمعاش.

أدلة ومقتضبة عن النص:

يتضح مما سبق أن القصة المروية عن نسبة القصيدة للفردق. وإن وقعت أمام مرأى من الناس، وانبرى فيها الفردق مادحاً لا نجد من يرويها إلا لشخص واحد معروف بالكذب، ثم نجد أن بعض أبياتها منسوبة في مصدر قديم لشاعر آخر مغمور. ويتضح كذلك أن حبة القصيدة تدل على وهنها وسذاجة من قام بها، وإن كانت لا تخلو من إشارة كانت سبباً في ذيوعتها، إذا أضفت إليها أن الفردق لم يكن شاعراً مطبوعاً يقول الشعر بالبديهة، بل هو القائل: لخلع ضرس أهون إلى من بيت شعر، فكيف انثالت عليه هذه الأبيات كالمطر؟ وهذا ما حدى بالنقد الكبير والمحقق المشهور احسان عباس ليقول في تعليقه عليها في تحقيقه وفيات الأعيان: (على أن القصيدة جاءت عفو الخاطر، أو كان الفردق كان متوقعاً ذلك السؤال فيه قدر من السذاجة)⁽³³⁾

إن المقاصد البصير والقارئ المتمرس في شعر الفردق وغيره من شعراء العربية ممن لديه الملكة النقدية والذوق الرفيع ما يعرف به أن هذا النص لا يمكن أن يخرج من بين فكي الفردق، فهو شاعر له طابع قوي جزل، فخم العبارة، تسمع للكلمات جلجلة وللتراكيب قعقعة، وصورة غير هذه الصور، وكان الفردق يدرك ذلك من نفسه، فقد كان زير نساء وصاحب غزل، ولكنه لا يجيد التشبيب، بخلاف جرير كان صاحب عفة، وذلك روي عنه أنه كان يقول: «ما احوجه مع عفته إلى صلابة شعري، وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون»⁽³⁴⁾ ليس فيما قاله الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن الإمام زيد حجة قوية حول ثبوت هذه القصيدة للفردق، فقد ذكر أن كتب التاريخ والسير والأدب روت هذه القصة منسوبة للفردق، ولم يتشكك الرواة والمؤرخون في نسبتها، وأكثر كتب الأدب لم تثر شكاً حولها إلا ما كان من الأصفهاني الذي يقول: «لأنه تخير منهاج شعراء البادية ... إلخ، وأنه لم يطعن فيها من جهة روايتها؛ بل من جهة أسلوبها والرأي هنا تعوزه الدقة.

ثم كان الكلام عن أسلوب النص وعدم موافقته لأسلوب الفردق لا يكفي بل الواجب نقدها من حيث روايتها، فقد بينا أن مدار روايتها علي الغلابي وهو من الواضعين، وفي رواية الطبراني شخص مجهول يرويها بطريقة مختلفة.

أم كلام الأصفهاني الذي ذكره عن القصيدة، فلم نجده في الأغاني وهو كلام صائب، ونظر نقدي فاحص أياً كان صاحبه، ويدل على معرفة بالشعر ومذاهبه ولغته. ولسائل أن يسأل لمن إذا هذه القصيدة التي نالت هذه الشهرة؟ ومن قائلها الحقيقي؟ والذي يرجح لي - والله أعلم - أن هذه القصيدة مركبة من أكثر من نص، فبعضها للحزين الكتاني، والذي خرج بعض أبياتها أبو تمام في الحماسة، وأورد أبياته أبو الفرج في الأغاني،

ووصفها بالمتناسقة، والجزء الآخر بعض من قصيدة داود بن سلم في مدح قثعم بن العباس، ويترجح الظن أن أحد الواضعين ركب القصة ودمج بين هذه الأبيات التي جاءت على وزن واحد وروى واحد، وأضاف عليها ما عنده أبياتاً ونسبها للفرزدق، وإن ذلك كان قريباً من مطلع القرن الرابع.

هذه القصة والقصيدة أوقعت بعض الباحثين في نسبة الفرزدق للتشيع، وحب آل البيت والتعصب لهم، ومن أوائل من فعل ذلك الشريف المرتضى في أماليه، حيث قال: «كان الفرزدق شيعياً مائلاً إلى بني هاشم⁽³⁵⁾، وعنه فيما يبدو تلقت بعض كتب الرجال هذه النسبة، والأمر ليس كذلك - فيما يبدو - لأن المتتبع لقصائد الفرزدق يدرك أنه كان من جملة الشعراء المادحين الذين يتكسبون بشعرهم، وقد أغرق بني أمية بمدائحهم والدفاع عنهم، وأنهم أهل الخلافة وأن الله اختارهم لها إلى غير ذلك من المعاني المنشورة في شعره.

ظن البعض أن الفرزدق هو من سرق القصيدة، ونسبها إلى نفسه وسبب هذا الوهم ما عُرف عن الفرزدق من السرقات. وإذا تأملت ما ذكر سابقاً، وجدت أن الشريف المرتضى هو من أعيان الشيعة وهو يشك في نسبتها إليه، وصاحب الأغاني - وهو معروف بميوله الشيعية - ينفي نسبة بعضها للفرزدق وينسبها للحرث الكنان، فالقضية قضية بحثٍ وتحقيقٍ، وآل البيت في شرفهم وعلو مكانتهم ليسوا في حاجة إلى مدح المادحين، انتحال الشعر لأجلهم، فهم أبعد شأواً من ذلك. ويكفي آل البيت شرفاً وفخراً ثناء الله عليهم وتطهيره.

ما وصل إليه البحث من نتائج:

عاش الشاعر الفرزدق في جوٍ مفعم بالاعلا والمحامد والمفاخر، فهو شريف وابن شريف، وهذه العوامل قد أثرت في نفسيته وجعلت منه شاعر فخر ومديح، حتى لُقّب بـ(أفخر شعراء العرب)، ويُعد بهما قمة شامخة في سماء الشعر العربي.

من هذه الورقة البحثية تتضح لنا براعة الشاعر، وتفوقه، واستخدامه لغرائب اللغة ونوادرها، وأنه لعب دوراً كبيراً في حشد اللغة وجمعها في قصائده حتى قال عنه النحاة: «لو لا الفرزدق لذهب ثلث اللغة ونصف أخبار العرب»، وهذه دلالة كبرى على تميز الشاعر وبراعته.

إن المديح غرض قديم في الشعر العربي، إلا أن هناك اختلاف بسيط بين العصور في غرض المديح، إذ أن غالب المديح في الجاهلية كان ينصب على سادات القبائل، وكان صادقاً في مضمونه، بينما في عصر صدر الإسلام، كان الشعراء يظهرون فيه حباً وإيماناً للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ولعامة المسلمين، فلم يكن الغرض مادياً وإنما احتساباً عند الله وذوداً عن حياض الإسلام.

أما العصر الأموي فصار غرض المديح فيه للتكسب والنيل، وتحول المدح إلى ما يشبه الحرفة، إن القصيدة الميمية لم ترد كاملة في كتب الأدب الأوائل، كالأغاني، وفيات الأعيان، العمدة، وديوان الحماسة لأبي تمام وغيرها من كتب الأدب القديمة، إضافة إلى اختلاف نسبة القصيدة إلى قائل معين، واختلاف من قيلت فيه القصيدة، تلك العوامل التي أدت إلى الشكوك في نسبة القصيدة للفرزدق رغم هذه الشهرة، والأمر يحتاج إلى مزيد من البحث العميق والتدقيق لتحقيق نسبتها إلى الشاعر أو بطلانها.

المصادر والمراجع:

- (1) أنظر: علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي، ط1، ص 256، بيروت.
- (2) أحمد الهاشمي، ج 1، ص 251، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 2012م
- (3) محمد عثمان علي، أدب ما قبل الإسلام، ص 118.
- (4) الروزني، شرح المعلقات السبع، ص 110، در الطلائع - القاهرة، 2009م.
- (5) المرجع السابق، ص 114
- (6) المرجع السابق، ص 114
- (7) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في الأدب ونصوص العصر الأموي، ط1، ص 100، مكتبة النهضة المصرية.
- (8) ديوان جرير، ج1، ص77، دار بيروت للطباعة والنشر 1986م.
- (9) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، ص 105.
- (10) المرجع السابق، ص 106.
- (11) سيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ص 296، طبعة دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، 2012م.
- (12) ديوان الفرزدق، مجيد طراد، ج 2، ص 238، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 2006م.
- (13) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق، حديث رقم 2278.
- (14) سورة آل عمران، الآية 110.
- (15) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ط1، ص 46، المكتبة العصرية، 1999م.
- (16) المرجع السابق، ص 201.
- (17) سورة الرحمن، الآيات (1-4).
- (18) الفزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ط 4، ص 301، دار إحياء العلوم، بيروت.
- (19) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 215.
- (20) المرجع السابق، ص 258.
- (21) النبعة: شجرة تُصنع من القصي، وهي أجود أنواع الشجر، والمراد منها في البيت أصل الممدوح الكريم.
- (22) سورة البقرة، الآية 117.
- (23) احمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 289.
- (24) البلاغة العربية، أساسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن اليداني، ج 2، ص 485، دار القلم، دمشق، 1996م.
- (25) الآمدي، المتوالف والمختلف، مصدر الكتاب موقع الوراق ص 77.
- (26) ديوان الحماسة، لأبي تمام، ج 2، ص 284.
- (27) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 15، ط3، ص 315، دار الفكر، بيروت.
- (28) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 3، ص 133، دار الجيل، بيروت 1996م.

ميسية الفزدق في ملح آل البيت (زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)

- (29) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 8، ص 208، مكتب المعارف، بيروت.
- (30) محمد بن اسحق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج 2، ص 178، دار خضر، بيروت.
- (31) إبراهيم بن العجمي، الكشف الحثين عمن رمي بوضح الحديث، ص 229، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1987م.
- (32) ابن عبد البر، بهجة المجالس وإنس المجالس، مصدر الوراق، ص 112.
- (33) ابن خالكان، وفيات الأعيان، ط 6، ص 95.
- (34) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 44، دار المعارف، القاهرة.
- (35) أمالي المرتضى، ج 1، ص 45.